

الخصائص التعميرية للإنسان

"دراسة تربوية تأصيلية للنظرة الخلدونية في طبيعة الإنسان العمرانية"

د/ حسين علي عون*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد؛؛؛

فقد أشار ابن خلدون إلى اختصاص الإنسان من بين المخلوقات بإقامة العمران، كما أشار إلى وجود صفات في الإنسان تؤهله للقيام بالعمارة وما يدفعه إليها في قوله: "ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران، في الملك والكسب والعلوم والصنائع، وجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة، وتندفع بها الأوهام وترفع الشكوك، ونقول: لما كان الإنسان متميزاً عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها فنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات، ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر، إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها إلا ما يقال عن النحل والجراد، وهذه وإن كان لهما مثل ذلك فبطريق إلهامي لا بفكر وروية، ومنها السعي في المعاش، والاعتماد في تحصيله لوجوهه، واكتساب أسبابه، لما جعل الله فيه من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه وهداه إلى التماسه وطلبه قال -تعالى-: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، ومنها العمران، وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات؛ لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما نبينه⁽¹⁾، كذلك في قوله وهو يؤصل لعلم الاجتماع البشري: "الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع، أي: لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران، وبيانه: أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلاّ بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما

* محاضر بكلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الأسمرية الإسلامية.

1 - ابن خلدون، المقدمة، ص: 41، 42.

رُكِبَ فيه من القدرة على تحصيله"⁽¹⁾، فهذه الهداية إلى التماس الغذاء، والقدرة على تحصيله هي في حقيقتها تعني فطرية إقامة العمارة وتأصلها في النفس البشرية، وهذا المعنى الذي أشار إليه ابن خلدون من الممكن التأصيل له من كتاب الله، في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾⁽²⁾، "فإنَّ الخلق هو إعطاء الوجود العيني للأشياء، أما الهداية فهي إعطاء الوجود الذهني والعلمي، فهذا خلقه، وهذا هدايته، وكلها هداية عامة وإعطاء تام، فكل ما خلقه الله جعل هدايته ذاتيةً فيه، وليست خارجةً عنه"⁽³⁾، قال الحسن وقتادة: "أعطى كلَّ شيءٍ صلاحه، وهُداه لما يصلحه"⁽⁴⁾، فهذه إرادةٌ كونيةٌ مُفادها أن الله قد أعطى كلَّ واحدٍ من المخلوقات هيئته وصورته وخصائصه التي تطابق المصلحة المنوطة به، ثمَّ وجهه إلى ما يصدر عنه وما ينبغي له طبعاً واختياراً ويسره لما خلق له، بخلق الميول والإلهامات ونصب الدلائل وإنزال الآيات⁽⁵⁾، ومما يدلُّ على ذلك أيضاً قوله -تعالى-: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾⁽⁶⁾، أي "خلق الإنسان وهَيَّاهُ للتكليف"⁽⁷⁾، فالله -ﷻ- قد قدَّر وجود هذه الخصائص وهداها إلى ما خلقت له، وجعلها من المؤهلات لتحمل أمانة العمارة، وهذا ممَّا يفهم من كلام الشاطبي في تأصيله للمقاصد المكملة للمقاصد الأصلية، حين قال: "وأما المقاصد التابعة فهي التي روعي فيها حظُّ المكلف فن جهتها يحصل له مقتضى ما جبل عليه من نيل الشهوات والاستمتاع بالمباحات وسدِّ الخلات، وذلك أنَّ حكمة الحكيم الخبير حكمت أن قيام الدين والدنيا إنما يصلح ويستمرُّ بدواعٍ من قبل الإنسان تحمله على اكتساب ما يحتاج إليه هو وغيره"⁽⁸⁾.

1- ابن خلدون، المقدمة، ص: 46.

2 - سورة طه، الآية 50.

3- الجليلند، خلل في مسيرة الأمة، ص: 197.

4- الشوكاني، فتح القدير: (368/3).

5- ينظر الأوسبي، روح المعاني: (316/15)، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: (62/2)، وأبو حيان، النهر الماد: (80/4).

6 - سورة الأعلى، الآيتان 2، 3.

7- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (222/22).

8- الشاطبي، الموافقات: (178/2، 179).

مشكلة البحث:

يُعدُّ ابن خلدون من أعلام الفكر التربوي الإسلامي الذين تناولوا موضوع الطبيعة الإنسانية، وهو موضوع من موضوعات التربية الرئيسة، نرى ذلك واضحاً في كتابه المقدمة، فقد تناول جزئيات كثيرة متعلقة بالطبيعة العمرانية للشخصية الإنسانية، إلا أن هذه النظرة الخلدونية في اختصاص الإنسان بإقامة العمران والمدنية تحتاج منا إلى تأصيل من القرآن الكريم والسنة النبوية، فابن خلدون لم يبين بالتفصيل خصائص الإنسان التعميريَّة، مع أنه أشار إلى بعض هذه الخصائص في أكثر من موضع، وهذا ما يدعو إلى إكمال ما بدأ به ابن خلدون، وبهذا يتسنى لنا بيان بعض الأسس التي يقوم عليها (فقه التحضر والعمران)، ومن أول الأسس وأكدها معرفة الطبيعة العمرانية للإنسان، وهذا ما سيقوم به الباحث في بحثه إن شاء الله تعالى.

أسئلة البحث:

السؤال الرئيس في هذا البحث هو: ما الخصائص التعميريَّة للإنسان؟
ويندرج تحت هذا السؤال الأسئلة الآتية:

- ما تعريف الخصائص التعميريَّة للإنسان؟
- ما الدليل على وجود هذه الخصائص في الإنسان؟
- كيف يمكن تصنيف وبيان هذه الخصائص؟

أهداف البحث:

الهدف الرئيس في هذا البحث بيان ماهية الخصائص التعميريَّة للإنسان.
ويندرج تحت هذا الهدف الأهداف الآتية:

- التعريف بالخصائص التعميريَّة للإنسان.
- بيان الدليل على وجود هذه الخصائص في الإنسان.
- تصنيف وبيان الخصائص التعميريَّة للإنسان.

أهمية البحث:

- التأصيل الشرعي للنظرة الخلدونية في اختصاص الإنسان بإقامة العمران والمدنية.

- بيان أهمّ الأصول التربويّة التي يقوم عليها علم فقه العمران، وهي أصولٌ نفسية، حيث ينطلق البحث من الإنسان بكونه صانعاً للحضارة، فعرفة هذه الخصائص أمرٌ في منتهى الأهمية لتأسيس فقه العمران.

منهجية البحث:

اتّبع الباحث المنهج الاستنباطي الاستقرائي، حيث تتّبع الآيات القرآنية التي نتكلم عن الإنسان، واختار منها ما تحدّثت عن تلك المؤهلات التي من شأنها أن تدفع بالإنسان إلى إقامة العمارة، وحاول أن يبلور مفهوم الآية في موضوع يعبر عن الخاصية.

وقد تناول الباحث هذا الموضوع في أربعة مطالب وفق ما يأتي:

المطلب الأول: التعريف بالخصائص التعميرية للإنسان:

الخصائص بصفة عامّة هي: الصفات التي يميّز بها الشيء من غيره، وهي: السمات التي يعرف بها، ويقوم كيانه عليها، وتحدّد معاملة، ويستقلّ بها ذاتاً وعرضاً، هذه الصفات والسمات تنبع من الأسس والأصول، وتمتدّ إلى الفروع، وتترك بصماتها وآثارها في كلّ جانب⁽¹⁾.

وفي هذا المطلب سيقوم الباحث بتعريف الخصائص لغةً واصطلاحاً:

1- لغة: الخاء والصاد أصل مطرد منقاس، وهو يدلّ على الفرجة والثلمة، ومن الباب خصصت فلاناً بشيءٍ خصوصية بفتح الخاء؛ لأنّه إذا أفرد واحداً فقد أوقع فرجةً بينه وبين غيره⁽²⁾، وخصّه بالشيء يخصّه خصاً وخصوصاً وخصوصية بفتح الخاء وضمّها والفتح أفصح وخصيصي وخصخصة، واختصه أفرده به دون غيره، ويقال: اختص فلان بالأمر، وتخصص له إذا انفرد⁽³⁾.

ومن هنا يتبين أنّ لفظ الخصائص يدلّ على ما يميّز به الشيء من غيره، وهو ما يجعله صاحب خصوصية، يترتب عليها تفردّه ببعض المهام الموافقة لهذه المميّزات.

1 - ينظر: الزحيلي، موسوعة قضايا إسلامية معاصرة: (421/6).

2 - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (152/2 - 153) بتصرف.

3 - ابن منظور، لسان العرب: (27/7)، بتصرف.

2 - اصطلاحاً:

لم يجد الباحث فيما بحث أيَّ تعريفٍ اصطلاحيٍّ لخصائص الإنسان التعميريَّة؛ لذلك فإنَّ الباحث يعرفها بعدة تعريفات، وهي تعريفات قائمةٌ على ما تُتصف به الخصائص من صفاتٍ، ومن هذه التعريفات التي استنبطها الباحث ما يأتي:

- خصائص الإنسان التعميريَّة:

- هي قوى فطريَّة متعدّدة ومتنوّعة، مدرّكة وفاعلة، مستجيبة للإثارة، قابلة للتّرقّي، ذات بعدين: حسيٍّ ومعنويٍّ، نتجت عن تمازج وتكامل ما للجسد وما للروح من صفاتٍ، ركبت في الإنسان، فجعلت منه ذا معنى خاص هو طبيعته التعميريَّة، التي تميّز بها من بقية المخلوقات.

- هي: هيئة في نفس الإنسان معدّة ومهيّأة للتّعامل مع عناصر الكون وفق قاعدة نصّ عليها القرآن، في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾⁽¹⁾.

- هي: ما اختصَّ الله به الإنسان دون غيره من الكائنات، من مزايا وقدراتٍ ومواهبٍ وإمكانات تدفعه إلى عمارة الكون واستثمار ما سخّره الله له فيه.

- هي صفات إنسانيَّة ذات طبيعة عمرانيَّة، قابلة للاستجابة لما يقابلها من عناصر مسخّرة في الكون، ومتفاعلة معها وفق منهجٍ معيّن؛ لينتج عن هذا التفاعل عمارة للكون، وحقيقة هذا التفاعل هو أنّه عبادة، لكونه أمرًا إلهياً وتكليفًا للإنسان بمباشرة الاستخلاف.

- هي: ما ميّز الله - ﷻ - به الإنسان من مزايا جعلت منه أهلاً ليقوم برسالة العمارة ومناطاً للتكليف بها .

- هي: المقومات التي تنتج القدرة والفعالية العمرانيَّة للإنسان، لتجعل منه علةً فاعلة في الكون الذي له قابليَّة لهذا الفعل .

المطلب الثّاني: الأدلّة على اختصاص الإنسان بإقامة العمران:

إنّ هناك عديداً من الأدلّة على وجود الخصائص، وكون أنّها وجدت ليؤدّي الإنسان واجب العمارة، مع أنّه من الممكن القول بأنّ العلم بوجودها من قبيل العلم

¹ - سورة طه، الآية 50 .

الضروري الذي لا يحتاج منا إلى أدنى تأملٍ؛ لكونها متأصلة الوجود في أنفسنا ونشعر بوجودها، فمعرفة فطرية وجدانية؛ لذلك اعتمدها القرآن دليلاً فطرياً على إثبات وحدانية الله وعدم الشك فيه ووجوب عبادته.

ومن هذه الأدلة ما يأتي:

1- قوله تعالى: ﴿وَالِي ثُمَّودَ أَخَاهُم صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾⁽¹⁾، فن المعاني التي فسّر بها اللفظ (استعمركم) "خلقكم لعمارته"⁽²⁾، و"جعلكم عمارها"⁽³⁾، و"اتخذكم عماراً"⁽⁴⁾، و"أهلّمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها"⁽⁵⁾، و"أقدركم على عمارتها وأعدكم لاستثمار ما فيها، وهياكم للاستفادة بما عليها وفيها وحوها من منافع وخيرات"⁽⁶⁾، "ولذلك أودع الله تعالى الإنسان خصائصه، ومنحه التسخير للكون لاستثمارها في عمارة الأرض تكريماً له، وعوناً له للقيام بمسؤولية العبادة لله تعالى وحده التي خلق من أجلها"⁽⁷⁾.

كلّ هذه المعاني تدلّ على أنّ وجود هذه الخصائص أمر مراد منه -ﷻ-؛ ليقوم الإنسان بعمارة الكون، مع ما يقابل هذه الخصائص من تسخير الله الكون للإنسان وتذليله له وفق سنن وقوانين ونواميس أرادها عن حكمة منه، جاءت موافقةً لهذه الخصائص مطابقةً لها.

وذلك لأنّ هذا الأمر من المعاني التي اقتضاها اللفظ (استعمركم) أي: "أمركم بعمارته"⁽⁸⁾، وهذا ما ذهب إليه زيد بن أسلم حين قال: "أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه

1 - سورة هود، الآية 61.

2- ابن العربي، أحكام القرآن: (4 / 495)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (9 / 55).

3- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (9 / 55)، وأبو حيان، البحر المحيط: (5 / 239)، والنيسابوري: (4 / 313)، ابن عاشور التحرير والتنوير: (12 / 108).

4- ابن عطية، المحرر الوجيز: (3 / 438).

5- أبو حيان، البحر المحيط: (5 / 239).

6- زرمان، الفعل الحضاري في القرآن، ص: 20.

7- عمر الأشقر، العقيدة في الله، ص: 87، والمطرودي، الإنسان وجوده، ص: 371.

8- النيسابوري: (4 / 313).

فيها من بناء مساكن، وغرس أشجار"⁽¹⁾، بناءً على معنى الطلب الذي أفاده وجود السين والتاء في (استعمركم)⁽²⁾، وقد حملوا هذا الطلب على الوجوب؛ لكونه طلباً مطلقاً، وهذا ما بينه الكيا بقوله: "يدلّ على وجوب عمارة الأرض، فإنّ الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى للوجوب"⁽³⁾، وهو ما نقله ابن العربي عن بعض علماء الشافعية، حيث قال: "قال بعض علماء الشافعية: الاستعمار طلب العمارة؛ والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب"⁽⁴⁾، إلا أنه هناك من اعترض على هذا الفهم؛ لما تضمّنه الفعل (استعمر) من طلب، ووجهه على أنه ليس طلباً على الحقيقة، ولكن نزل جعلهم محتاجين لذلك وإقذارهم عليه والهالمهم كيف يعمرّون منزلة الطلب⁽⁵⁾، وعلى هذا الفهم يكون الأمر بالعمارة أمراً كونياً لا شرعياً؛ لتعلقه بالخلق والإيجاد، وهذا ما يفهم من كلام ابن العربي بعد مناقشته لما يجمله اللفظ (استفعل) من معانٍ، فقال: "(استعمركم فيها) خلقكم لعمارتها، لا على معنى استجدته واستسهلته، أي: أصبته جيداً وسهلاً، وهذا يستحيل في الخالق، فيرجع إلى أنه خلق؛ لأنّه الفائدة، وقد يعبر عن الشيء بفائدته مجازاً، ولا يصحّ أن يقال: إنه طلب من الله تعالى لعمارتها، فإنّ هذا اللفظ لا يجوز في حقّه"⁽⁶⁾، إلا أنّ له توجيهاً آخر يحمل في مضمونه أدبا مع الله تعالى، ويوافق قواعد اللغة، ويفيد الإرادة الشرعية للعمارة، وهو ما يفهم من قوله: "أما أنه يصحّ أن يقال: أنه استدعى عمارتها فإنّه جاء بلفظ استفعل، وهو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمراً، وطلب للفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى رغبة"⁽⁷⁾، وعلى كلّ فالخلاف بين هذا التوجيه والتوجيه الذي يفيد معنى الطلب خلاف في اللفظ لا في المعنى، فكلاهما يفيد الأمر الشرعي بالعمارة.

1- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (9 / 55)، والألوسي، روح المعاني: (8 / 288).

2- الألوسي، روح المعاني: (8 / 288).

3- الكيا الهراسي، أحكام القرآن: (3 / 86).

4- ابن العربي، أحكام القرآن: (4 / 495)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (9 / 55).

5- يراجع: الألوسي، روح المعاني: (8 / 288).

6- ابن العربي، أحكام القرآن: (4 / 495)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (9 / 55).

7- ابن العربي، أحكام القرآن: (4 / 495)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (9 / 55).

إنَّ التَّكْلِيفَ بِالْعِمَارَةِ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ لِلإِنْسَانِ خِصَائِصٌ هِيَ مَنَاطُ هَذَا التَّكْلِيفِ⁽¹⁾، كَمَا "أَنَّ مَجْرَدَ حَمْلِ الْمَوَاهِبِ إِثْمًا هُوَ تَكْلِيفٌ مِنَ اللَّهِ لِلإِنْسَانِ أَنْ يُؤَدِّيَ دَوْرَهَا فِي مَجَالِهَا"⁽²⁾، وَهَذَانِ أَمْرَانِ يَتَعَلَّقَانِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْعَدْلُ الإِلَهِيُّ وَالْحِكْمَةُ الإِلَهِيَّةُ، فَمِنْ بَابِ عَدْلِهِ - ﷻ - أَنَّهُ لَا يَكْلِفُ عِبَادَهُ بِمَا لَا يَطِيقُونَ، وَمِنْ بَابِ الْحِكْمَةِ أَنْ يَكُونَ لَوْجُودِ الْخِصَائِصِ مَعْنَى؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَخْلُقْ عَبَثًا، وَهُوَ التَّكْلِيفُ بِالْعِمَارَةِ، فَالِإِنْسَانُ "لَدَيْهِ مِنْ الْمَوَاهِبِ وَالْقُدْرَاتِ الَّتِي يَقَابِلُهَا تَسْخِيرٌ فِي الْكُونِ لِلْقِيَامِ بِمَهْمَّتِهِ كَامِلَةً؛ لِيَكُونَ مُسْتَثْمِرًا لَهَا أَقْصَى مَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ عَمَلِيَّةُ الْإِسْتِثْمَارِ لِعِمَارَةِ الْأَرْضِ"⁽³⁾.

2- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽⁴⁾، فَالْحَقُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هُوَ الَّذِي اسْتَخْلَفَ الْإِنْسَانَ فِي الْكُونِ، وَالِاسْتِخْلَافُ بَيْنَهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَاسْتَعْمَرَ كُرْمًا فِيهَا﴾⁽⁵⁾، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي الرِّبْطِ بَيْنَ الْإِسْتِخْلَافِ وَالِاسْتِعْمَارِ بَيْنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ فِي تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ: "وَاسْتَعْمَرَ كُرْمًا فِيهَا" قَالَ: "اسْتَخْلَفَكُمْ فِيهَا"⁽⁶⁾، فَالِاسْتِخْلَافُ عَلَى هَذَا "مَرْكَزٌ شَرْعِيٌّ جَوْهَرِيٌّ تَفْوِيضٌ وَتَكْلِيفٌ، تَفْوِيضٌ لِلإِنْسَانِ بِخِلَافَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَتَكْلِيفٌ لَهُ بِاسْتِعْمَارِهَا ﴿هُوَ أَشْأَكُرُّ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَ كُرْمًا فِيهَا﴾، فَهُوَ إِذَا نِيَابَةً تَطَلَّقَ يَدُ الْإِنْسَانِ فِي الْوُجُودِ تَتَعَمَّا وَاسْتِهْلَاكًا؛ لِكِفَايَةِ ذَاتِهِ وَإِحْرَازًا لَوْجُودِهِ، وَتَلْزِمُهُ بِإِدَارَةِ الْمَوَارِدِ وَعِمَارَةِ الْأَرْضِ عَلَى نَحْوِ مَا يَقْرَرُهُ الْمَنْهَجُ الإِلَهِيُّ (الْمَذْهَبُ الْاِقْتِصَادِيُّ فِي الْإِسْلَامِ) الَّذِي يَحْدُدُ عِلَاقَةَ الْإِنْسَانِ بِالثَّرْوَةِ، وَعِلَاقَةَ الْإِنْسَانِ بِالِإِنْسَانِ مِنْ خِلَالِهَا فِي إِطَارِ الْعِلَاقَةِ الْاِسْتِخْلَافِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ: عِلَاقَةَ الْإِنْسَانِ بِرَبِّ الْوُجُودِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -"⁽⁷⁾، فَمَعْنَى كَوْنِ الْإِنْسَانِ خَلِيفَةً هُوَ أَنَّهُ

1- ينظر: النجار، فقه التضرر الإسلامي، ص: 37.

2- الخولي، الثروة في ظل الإسلام، ص: 68.

3- المطرودي، الإنسان وجوده ولافته، ص: 374.

4- سورة البقرة، الآية 30.

5- الشعراوي، تفسير الشعراوي: 373.

6- ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم: (8 / 203)، والسيوطي، الدر المنثور (4 / 445) .

7- السبباني، الاستخلاف والتركيب الاجتماعي في الإسلام، ص: 52.

مستخلف في إصلاح الأرض وتعميرها بالخيرات المادية والمعنوية وبالهدى والنور⁽¹⁾، ومن المعاني التي يتضمنها مفهوم الاستخلاف مسؤولية المستخلف عما استخلف عليه، فالإنسان جعله الله سبحانه وتعالى خليفة في الأرض سيداً في هذا العالم؛ ليحافظ على انتظام أمره؛ وجعل انتظام هذا العالم منوطاً بسعي الإنسان فيه بالكسب الذي جعله الله في جبلته، وهذا مما يدل على وجود الخصاص، "فالله -ﷻ- إذ أراد للإنسان أن يكون خليفته في هذه الأرض فإنه قد برأه وقدره على وفق ما تؤدّي به الخلافة أفضل أداء"⁽²⁾.

3- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾⁽³⁾، أي: "مكّاهم بخلق القوى والقدر وإدرار النعم التي تعينهم على إنجاء أنفسهم"⁽⁴⁾، فمن مستلزمات التمكين أن يكون في ذات الإنسان أسباب هذا التمكين الذي من معانيه القدرة على التصرف في الأرض والتملك فيها، ومن مستلزمات الانتفاع بالمعيشة وجود ما يتوصّل به إليها، وهذا المعنى يفهم من كلام الزمخشري في تفسيره لهذه الآية، حيث قال: "﴿مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً، أو ملكاً كم فيها، وأقدرناكم على التصرف فيها، {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ}، جمع معيشة؛ وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها، أو ما يتوصّل به إلى ذلك"⁽⁵⁾، وفي هذا دليل على وجود الخصاص التي تمكّن الإنسان من العمارة، وفي مثل هذا المعنى يقول ابن خلدون معبراً عن حقيقة الإنسان: "لأنّ الإنسان إنّما هو إنسانٌ باقتداره على جلب منفعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك"⁽⁶⁾.

المطلب الثالث: تصنيف الخصاص التعميريَّة للإنسان وبيانها:

حصر الباحث الخصاص في ست خصائص، صنّفها وفقاً لما استنبطه ممّا ورد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ

1- ينظر عبد الستار نوير، رسالة الإنسان في الحياة، ص: 8.

2- الخولي، آدم عليه السلام، ص: 46.

3- سورة الأعراف، الآية 10.

4- البقاعي، نظم الدرر: (3 / 183).

5- الزمخشري، الكشاف: (2 / 207).

6- ابن خلدون، المقدمة، ص: 374.

خَقَّ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَالِدَاتُ إِذَا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ⁽¹⁾ تصریحاً أو ضمناً، وما ورد في غيرها من الآيات، والأصل الذي اعتمده الباحث في تحديد الخصاص وتصنيفها هو كلّ مزية للإنسان تؤهله للقيام بمسؤولية العمارة، وتدفعه إليها، وهذه الخصاص وفق ما رآه الباحث هي: خاصية الانتماء إلى الأرض، خاصية النزعة الاجتماعية، خاصية الاختلاف والتنوع، خاصية التعقل، خاصية حب التملك، خاصية حب الخلود.

وفي هذا المقام لا يدعي الباحث أنّ خصائص الإنسان التعميريَّة محصورة في هذا العدد، وإنما الأمر قابل للبحث والمراجعة، وفيما يلي بيان لما ذكر من هذه الخصاص:

1- خاصية الانتماء إلى الأرض:

خاصية الانتماء إلى الأرض راجعة إلى إنشاء الإنسان من الأرض؛ والإنشاء هو الإحداث والإيجاد، والإنشاء من الأرض خلق آدم؛ لأنّ إنشاء إنشأ لنسله⁽²⁾، وحقيقة الإنشاء من الأرض هو إخراج للحى من الميت، وهو ضرب منه، "فالتراب موات لا حياة فيه، وطبعه مناف لطبع الحياة؛ لأن التراب بارد يابس وذلك طبع الموت، والحياة تقتضي حرارة ورطوبة، فمن ذلك البارد اليابس ينشأ المخلوق الحى المدرك، وقد أشير إلى الحياة والإدراك بقوله تعالى: (إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ)، وإلى التصرف والحركة بقوله: (تَنْتَشِرُونَ)⁽³⁾ فالإنشاء ليس مجرد تكوين بل هو خلق متكامل.

هذا وقد ورد ذكر هذه الخاصية في عديد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾⁽⁴⁾، والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من

¹ - سورة الروم، الآيات 20 - 24 .

² - ابن عاشور، التحرير والتنوير: 107/12 - 108 .

³ - ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21 / 70 - 72 .

⁴ - سورة الروم، الآية 20.

الأرض ليكون صالحا للارتباط بها بالاستخلاف والتعمير، وهذا ما يدل عليه مجيئها مقترنا بالاستعمار في قول المولى - عز وجل - : ﴿وَالْيَ تُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾⁽¹⁾، وهذا الارتباط بين الإنسان والأرض شديد ومتمكن، يقول تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾⁽²⁾ .

2- خاصية النزعة الاجتماعية (الاستئناس ببني جنسه):

من أهم الخصائص التي اختص بها الإنسان دون غيره من المخلوقات خاصية النزعة إلى الاجتماع أو إلى العمران، وهذا ما يؤكد ابن خلدون في تقريره لضرورة الاجتماع الإنساني، فيقول: "ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: "الإنسان مدني بالطبع"، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران"⁽³⁾.

والنزعة من النزوع وهو "الاشتياق الشديد، وأنزع القوم: نزع إبليس إلى مواطنهم، أي: حنت"⁽⁴⁾، والاجتماع هو الالتقاء والعيش في جماعة والاستئناس بهم، ويبدو أن هذه الخاصية هي السمة الغالبة أو الخاصية الطاغية على الشخصية الإنسانية، وخير دليل على ذلك سر تسمية هذا المخلوق بالإنسان، فقد قيل: سمي إنسانا "لأنه خلق خلقه لا قوام له إلا بئس بعضهم ببعض، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه، وقيل: سمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه"⁽⁵⁾.

إن أول الأدلة على هذه الخاصية هي تسمية الإنسان بهذا الاسم، وذلك لأن "اسم (الإنسان) فيه من الدلالة على الألفة الاجتماعية التي يتميز بها الإنسان، فليس بين الأحياء على وجه الأرض مخلوق يوصف بالفطرة الاجتماعية غير الإنسان، وبتفاعل عناصر الكون مع الإنسان تتخذ هذه الصفة، فالمكان الأنيس هو الذي يسكنه الإنسان،

1 - سورة هود، الآية 61 .

2 - سورة طه، الآية 55 .

3 - ابن خلدون، المقدمة، ص: 46 .

4 - الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص: 617 .

5 - ابن عاشور، التحرير والتنوير: 402/1 .

والحيوان الأنيس هو الذي يألف الإنسان في مسكنه⁽¹⁾، كما أن "لمادة (أناس) التي هي أصل اشتقاق (الإنس والإنسان) دلالتها على نقيض التوحش، وهو ملحظ الإنسية لكلا اللفظين، فالإنسية التي هي عدم التوحش يميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات الأخرى التي لا تحيا حياته"⁽²⁾.

ومن الأدلة التي تتضمن هذه الخاصية ما امتن الله سبحانه وتعالى على البشر بأن جعل لهم من جنسهم ما يسكنون إليه، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽³⁾، ووجه دلالة الآية على النزعة الاجتماعية أمور، أولها: قوله - تعالى -: (مِنْ أَنْفُسِكُمْ)، حيث يتضمن اجتماع الإنسان ببني جنسه، وهذا البعد أشار إليه الشوكاني في تفسيره، فقال: "أي: من جنسكم في البشرية والإنسانية"⁽⁴⁾. وأما الأمر الثاني: قوله تعالى: (أَزْوَاجًا)، فنظام الزواج صورة من صور الاجتماع البشري، يستلزم النزوع إلى الاجتماع. يقول ابن عاشور مبينا دلالة ذلك على النزعة الاجتماعية: "وهذه الآية كائنة في خلق جوهر الصنفين من الإنسان: صنف الذكر، وصنف الأنثى، وإبداع نظام الإقبال بينهما في جبلتهما، وذلك من الذاتيات النسبية بين الصنفين"⁽⁵⁾. والأمر الثالث قوله: (لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) الدال على مطابقة على تأصل النزوع إلى التآلف في النفس البشرية. يقول الشوكاني مبينا هذا البعد: "أي تألفوها وتميلوا إليها، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر"⁽⁶⁾.

ومن الأدلة على هذه الخاصية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁽⁷⁾، فهذه التنظيمات الذي جعلها الله سنة في البشر، وهذا التعارف الحاصل عن

1- العقاد، الإنسان في القرآن، ص: 140.

2- سعيد إسماعيل علي، القرآن الكريم رؤية تربوية، ص: 83، نقلا عن عائشة عبد الرحمن، مقال الإنسان، ص: 14.

3- سورة الروم، الآية 21.

4- الشوكاني، فتح القدير: 263/4.

5- ابن عاشور، التحرير والتنوير: 71/21.

6- الشوكاني، فتح القدير: 263/4.

7- سورة الحجرات، الآية 13.

هذه التنظيمات الاجتماعية تستلزم نزوعهم إلى الاجتماع، ومن الأدلة أيضا قوله - تعالى:- ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾⁽¹⁾ فهذه الآية تتكلم عن الأسرة، وهي شكل من أشكال الاجتماع البشري الذي يستلزم النزوع إلى الاجتماع.

البعد التعميري للنزعة الاجتماعية:

إن رسالة العمارة لا تنهض إلا بالعمل الجماعي بين البشر؛ لذلك جعل الله في نفس كل إنسان نزعته إلى الاجتماع ببني جنسه، وهي ليست مجرد نزعة إلى أي اجتماع كان، بل هي نزعة إلى إشباع حاجة ملحة في نفسه وهي الاستئناس، كما أنها نزعة لا تنفك عنه، ولا يمكن لأي إنسان سوي الاستغناء عنها، حتى ولو توافرت له حاجاته المادية، وهذا ما يدل أن وجود آدم في الجنة لم يكتمل إلا بوجود زوجته معه، و"الإنسان بحكم هذه النزعة لا يستطيع أن يعيش بمفرده، ولا يستطيع الحياة منفصلا عن المجتمع البشري الذي يعيش في محيطه، ولا عن الحياة والأحداث الجارية، بل تجده يسعى على الدوام إلى الاندماج في حياة مجتمعه في حال صحته النفسية، وإلى بناء علاقات مختلفة مع أفراد وجماعاته، وإلى التفاعل مع حياة وثقافة مجتمعه، وإلى التعاون مع أفراد في تحصيل معاشه، وإلى التغلب على الموارد الطبيعية التي قد تكون محدودة عن طريق الاستغلال الأمثل"⁽²⁾.

3- خاصية الاختلاف:

من خصائص الإنسان التعميرية خاصية الاختلاف، ومعنى الاختلاف "هو أن الله خلق الناس مختلفين في الاستعدادات والقدرات؛ لينتج عن ذلك اختلاف في المهن والصناعات، وابتليهم بالإخلاص في خدمة بعضهم بعضا"⁽³⁾؛ وذلك لأن "الله سبحانه أراد أن يكون الناس متكاملين في المواهب وفي الكماليات؛ وهذا من متطلبات الخلافة؛

¹ - سورة النحل، الآية 72.

² - الشيباني، عمر، مفهوم الإنسان في الفكر الإسلامي، ص: 165، 166.

³ - الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ص: 257.

لأن الناس لو كانوا صورة مكررة في المواهب لفسدت الحياة، فلا بد أن تختلف مواهبهم؛ لأن مطلوبات الحياة متعددة⁽¹⁾.

وقد أشار ابن خلدون إلى هذا المعنى في حديثه عن الكسب والمال وما ينتج عنه من جاه لصاحبه وتمايز في طبقات المجتمع، فقال: "ثم إن الجاه متوزع في الناس ومرتبت فيهم طبقة بعد طبقة، ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية، وفي السفلى إلى من لا يملك ضرا ولا نفعا بين أبناء جنسه، وبين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه بما ينتظم معاشهم وتهيئ مصالحتهم ويتم بقاؤهم؛ لأن النوع الإنساني لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بالتعاون بين أبنائه على مصالحتهم؛ لأنه قد تقرر أن الواحد منهم لا يتم وجوده، وإنه وإن ندر ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاؤه"⁽²⁾، وقال في موضع آخر يبين فيه مرد التنوع العمراني إلى البدوي والحضري، فقال: "اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهن من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشيط قبل الحاجي والكمالي"⁽³⁾.

دل على خاصية الاختلاف قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾⁽⁴⁾، فالاختلاف في هذه الآية أوسع شمولاً من الاختلاف الظاهري والشكلي؛ بل له معنى أدق وهو ما يختص به كل إنسان دون غيره، فقوله: (وألوانكم) "ليس المراد به السواد والبياض والسمرة والحمرة والأدمة والصفرة، وإنما المعنى اختصاص كل واحد من الناس بخلفة وانفراده بصورة، يقارنها لفظ تديير من الله تعالى، يجعله على لون ونوع من التصوير يتميز به عن سائر أمثاله"⁽⁵⁾.

ومما يدل على خاصية الاختلاف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾⁽⁶⁾، أي: "خلقهم

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي: (1 / 2803).

2- ابن خلدون، المقدمة، ص: 390.

3- ابن خلدون، المقدمة، ص: 120.

4 - سورة الروم، الآية 22.

5- الخطيب الأسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، ص 370.

6 - سورة هود، الآيات 118، 119.

مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم وآرائهم وشعورهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم، ومن ذلك الدين والإيمان والطاعة والعصيان، وحكمته أن يكونوا مظهرًا لأسرار خلقه المادية والمعنوية في الأجسام والأرواح وسننه في الأحياء، وتعلق قدرته ومشيتته بخلق جميع الممكنات، وبهذا كانوا خلفاء الأرض⁽¹⁾.
ومما يدل عليها قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾⁽²⁾، فمن المعاني التي دل عليها لفظ الأطوار "اختلافهم في الطول والقصر، والقوة والضعف والهلم والتصرف، والغنى والفقير، أو اختلافهم في الأخلاق والأفعال"⁽³⁾، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾⁽⁴⁾، فاختلاف الألوان المذكور في الآية هو صور من صور الاختلاف، ذكرت معه صورة أخرى وهي اختلاف البشر في أحوال قلوبهم ومداركهم، دل على ذلك قوله (كذلك)، والتقدير كذلك الاختلاف، يختلف الناس في خشيتهم لله⁽⁵⁾.

4- خاصية العقل:

يطلق العقل على "القوة المتبيئة لقبول العلم، ويطلق على العلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة"⁽⁶⁾، وسمي بذلك "تشبيها بعقل الناقة؛ لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قبحت، كما يمنع العقلُ الناقةَ من الشرود إذا نفرت"⁽⁷⁾.
ومع أنه لم يرد ذكر خاصية العقل بشكل مستقل بكونه آية من الآيات المستدل بها في سورة الروم، إلا أنه جاء ذكر ما يفيد هذه الخاصية، خلال ذكر هذه الخصاص،

1- رشيد رضا، تفسير المنار: (12 / 160).

2- سورة نوح، الآيتان 13، 14.

3- الماوردي، النكت والعيون: (6 / 102).

4- سورة فاطر، الآيتان 27، 28.

5- ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير: (22 / 304).

6- الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص: 434.

7- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص: 7.

ومن ذلك التفكير في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾، ومن ذلك أيضا العلم في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾، أي: "أهل الانتفاع بالنظر فيها وهم أهل العلم"⁽³⁾، ومن ذلك أيضا التدبر والاعتبار والفهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾⁽⁴⁾، أي: "سماع تفهم واستبصار"⁽⁵⁾، أو "سماع تدبير واعتبار"⁽⁶⁾، ومن ذلك التعقل في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁽⁷⁾، ومما يدل على هذه الخاصية أيضا قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾⁽⁸⁾، فالنمائم واليقظة يتضمنان وجود العقل؛ لأنهما متعلقان بغياب القوة العقلية وحضورها، والابتغاء من فضل الله يستلزم الوعي والإدراك.

ومما يدل على خاصية التعقل قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁽⁹⁾، فخصول الخوف والطمع وما يترتب عليهما من مواقف يستلزمان وجود العقل؛ لأنهما يعبران عن الإدراك والوعي والإرادة.

ومما يدل صراحة على أن العقل خاصية من خصائص التعمير مجيئها في معرض الحديث عن الاستخلاف في قوله -تعالى-: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁽¹⁰⁾، فهذا نص صريح في أن الله - سبحانه وتعالى - "بث في الإنسان من أسرار الفهم والتمييز والاستعداد

1 - سورة الروم، الآية 21 .

2 - سورة الروم، الآية 22 .

3 - ابن عطية، المحرر الوجيز: (4 / 386) .

4 - سورة الروم، الآية 23 .

5 - الألويسي، روح المعاني: (21 / 32) .

6 - ابن عادل الدمشقي، اللباب: (15 / 397) .

7 - سورة الروم، الآية 24 .

8 - سورة الروم، الآية 23 .

9 - سورة الروم، الآية 24 .

10 - سورة البقرة، الآية 32 .

الفطري ما يكشف به تلك النواميس والسنن، ويميز خصائص الأشياء بعضها من بعض" (1).

ومما يدل على فطرية العقل وتأصلها في طبيعة خلق الإنسان مع الاختلاف في كيفية حصول ذلك على ما بينه الألويسي بقوله: "قيل: بأن خلق فيه - عليه السلام- بموجب استعداده علماً ضرورياً تفصيلاً بتلك الأسماء وبمدلولاتها وبدلالاتها ووجه دلالتها، وقيل: بأن خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعداً لإدراك أنواع المدركات، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفصيل آلياتها وكيفيات استعمالها" (2).

البعد التعميري للعقل: إن العقل والعلم من أسباب بقاء عمارة العالم (3)، وهذا من السنن الإلهية التي أرادها الله في هذا الكون، والقاعدة في ذلك "أن الله تعالى قدر الخير والشر في الدنيا والآخرة، وجعل لكل مقدر سبباً يترتب عليه ويرتبط به، ومن جملة الأسباب التي جرت عادة الله - تعالى- بها من العلوم والجهالات، فالجهل سبب عظيم في العالم لمفاسد من أمور الدنيا والآخرة وفوات المصالح، والعلم سبب عظيم لتحصيل مصالح ودرء مفاسد في الدنيا والآخرة" (4).

فالإنسان قد هدي إلى مصالحة بالعقل كما هديت الموجودات الأخرى إلى مصالحتها بالإلهام (5)، وهذا مصداق قوله -تعالى-: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (6)، فالخلق "هو إعطاء الوجود العيني للأشياء، أما الهداية فهي إعطاء الوجود الذهني والعلمي، فهذا خلقه، وهذا هدايته، وكلها هداية عامة وإعطاء تام، فكل ما

1- انحلوي، آدم عليه السلام، فلسفة تقويم الإنسان وخلافته، ص 114.

2- الألويسي، روح المعاني، (1 / 224).

3- ينظر الرازي، التفسير الكبير (29 / 80).

4- القرافي، الفروق (1 / 272).

5 - ينظر النجار، هامش تفصيل النشأتين، ص 127.

6 - سورة طه، الآية 50.

خلقه الله جعل هدايته ذاتية فيه وليست خارجة عنه⁽¹⁾، قال الحسن وقتادة: "أعطي كل شيء صلاحه، وهده لما يصلحه"⁽²⁾.

وقد تنبه ابن خلدون لهذه الخاصية وبعدها التعميري في تقريره بأن العلم والتعليم طبعي في العمران البشري، حيث يقول: "وذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات، في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والسكن وغير ذلك، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به، لتحصيل معاشه، والتعاون عليه بأبناء جنسه، والاجتماع المهيأ لذلك التعاون، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله -تعالى-، والعمل به، واتباع صلاح أخراه، فهو مفكر في ذلك كله دائماً، لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين، بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر، وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع، ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطبائع، فيكون الفكر راغباً في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فيرجع إلى من سبقه بعلم، أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه، فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه، ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد من الحقائق، وينظر ما يعرض له لذاته واحداً بعد آخر، ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له، فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً، وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك، فيفزعون إلى أهل معرفته ويجيء التعليم من هذا، فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبيعي في البشر"⁽³⁾.

5- خاصية حب الخلود:

هي تعني أن الإنسان مجبول على حب الخلود وحب الحياة، ويقصد بالخلود: "دوام البقاء في دار لا يخرج منها، خَلَدَ يَخْلُدُ خُلُوداً وَخُلُوداً بَقِي وَأَقَام"⁽⁴⁾.
دل على هذه الخاصية قول المولى -عز وجل-: ﴿فَوَسَّسَ لَّهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا

1 - الجليلند، خلل في مسيرة الأمة، ص: 197.

2 - الشوكاني، فتح القدير: (3 / 368).

3 - ابن خلدون، المقدمة: 429، 430.

4- ابن منظور، لسان العرب: مادة "خلد" (3 / 164).

مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ»⁽¹⁾، قيل: طمع آدم في الخلود؛ لأنه علم أن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة⁽²⁾، كما دل عليها قوله -تعالى-: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى﴾⁽³⁾، فقد أفصح هذا عن استقرار محبة الحياة في جبلة البشر⁽⁴⁾، كما دل عليها ضمنا قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁽⁵⁾، فحصل الخوف يتضمن معنى سعي الإنسان في المحافظة على حياته ونفسه، وهذا يعني حبه للخلود.

إن الحياة "هي الوسيلة الزمنية التي لا تنهض إلا عليها جميع الأسباب والشروط التي لا بد منها لاستخدام الأرض وعمارتها، واستغلال ذخرها ومكوناتها المختلفة، من أجل إنشاء المجتمع الإنساني السليم فوقها، فكانت الحكمة قاضية - نظرا إلى أهميتها- بأن تنطبع الغريزة* الإنسانية في أصل كينونتها على حب البقاء، والتعلق بالحياة"⁽⁶⁾.

كما أن العمارة تستغرق كل حياة الإنسان، بصفتها سلسلة طويلة من الابتلاءات، علاوة عن كونها تستغرق كل جانب من جوانب حياة الإنسان، وهذا أمر كوني ملاحظ، صدقه أمر شرعي يحث على استمرار العمارة كما في قوله ﷺ: (إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ الْآلُ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا)⁽⁷⁾، كما أنها تستغرق حياة البشرية كاملة خلال رحلتها الطويلة على الأرض، وهذا ما يتضمنه لفظ (خلائف) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾⁽⁸⁾، فصارت الدنيا "تنتقل بعمرانها إلى قرن بعد قرن فيتم الثاني ما أبقاه الأول

1 - سورة الأعراف، الآية 20.

2- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (7 / 178).

3 - سورة طه، الآية 120.

4- ابن عاشور، التحرير والتنوير: (16 / 326).

5 - سورة الروم، الآية 24.

*- هذه اللفظة عفا عنها الزمن، كما أنها لا تليق بالكرامة الإنسانية، وإنما نقلتها هنا كما هي مراعاة للنص المنقول دون تغيير فيه.

6- البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص: 57.

7- سبق تخريجه.

8 - سورة الروم، الآية 24.

من عمارتها، ويرمم الثالث ما أحدثه الثاني من فساد فيها، وبهذا تكون أحوالها ملتئمة وأمورها منتظمة"⁽¹⁾.

وقد دل على ما لحب الحياة من بعد تعميري ما أشار إليه ابن خلدون في تعريفه للمعاش وربطه بالحياة عندما قال: "اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله، وهو مفعول من العيش، كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جعلت موضعاً له على طريق المبالغة"⁽²⁾.

6- خاصية حب التملك:

حب التملك قوة فطرية متأصلة في النفس تنزع بالإنسان إلى ملك ما يمكن تملكه⁽³⁾، وكون التملك محبوباً بالطبع لا يعني أنه محبوب لذاته، وإنما لأنه سبب من أسباب الكمال، وذلك لكونه سبباً لحصول القدرة، ولكمالها في حق البشر، والذي يتوقف عليه المحبوب فهو محبوب⁽⁴⁾، كما أن حب التملك قوة لها علاقة وثيقة بحب الخلود والحياة؛ لعلاقة حب التملك بالخوف من المستقبل، وذلك لأن "كل نفس بشرية مجبولة على حب التملك والاقتران تحسباً لحوادث المستقبل والمجهول"⁽⁵⁾، دل على هذا التلازم قوله -عليه السلام-: (قلب الشيخ شاب على حب اثنتين، طول الحياة، وحب المال)⁽⁶⁾، وهذا مجاز واستعارة، ومعناه أن قلب الشيخ كامل الحب لله، محتكم في ذلك كاحتكام قوة الشاب في شبابه هذا صوابه⁽⁷⁾، وفي رواية البخاري يقول -عليه السلام-: (لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل)⁽⁸⁾.

1- الماوري، أدب الدنيا والدين، ص: 122.

2- ابن خلدون، المقدمة، ص: 382.

3- ينظر الخولي، آدم عليه السلام، ص: 174.

4- ينظر الرازي، التفسير الكبير: (16 / 80).

5- الحامي، الحياة الدنيا في القرآن الكريم، ص: 111.

6- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا: (724/2)، رقم (1046).

7- النووي، شرح النووي على مسلم: (7 / 138).

8- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر: (2360/5)، رقم (6057).

مما يدل على وجود هذه الخاصية في الإنسان قوله -تعالى-: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى﴾⁽¹⁾، أما بالنسبة للسياق التعميري في آيات سورة الروم، فقد جاء ما يتضمن ويستلزم هذه الخاصية في قوله -تعالى-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾، فالابتغاء من فضل الله يستلزم وجود حب التملك دافعا له، ولفظ الطمع يفيد ضمنا حب التملك.

وقد أشار ابن خلدون إلى ما يفيد فطرية حب التملك في ربطه بين تعلق آمال الناس بالكسب، وهذا ما يبين لنا البعد التعميري لهذه الخاصية. يقول ابن خلدون: "اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهاها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيرا عاما في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك؛ لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها، وإن كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبه"⁽³⁾.

كما أشار في موضع آخر إلى مثل هذا المعنى عند حديثه عن ضرورة التكسب، وفي هذا ما يفيد إلى فطرية حب التملك حيث عبر عنه بأن الإنسان مفتقر بالطبع، فقال: "الفصل الخامس من الكتاب الأول في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال، وفيه مسائل: -الفصل الأول- في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية، اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من لدن نشوءه إلى أشده إلى كبره والله الغني وأنتم الفقراء"⁽⁴⁾.

1 - سورة طه، الآية 120.

2 - سورة الروم، الآيتان 23، 24.

3- ابن خلدون، المقدمة، ص: 287.

4- ابن خلدون، المقدمة، ص: 380.

المطلب الرابع: الأصل الذي اعتمده الباحث في تصنيفه للخصائص:

جاء ذكر هذه الخصائص تصريحاً وضمناً في سورة الروم، في قوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنْامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁽¹⁾، والمتدبر في هذه الآيات يلاحظ أن هناك وحدة موضوعية تربطها في كونها آيات في الأنفس والآفاق، جاءت دلائل على وحدانية الله وعظمة قدرته، وعلى البعث الذي يعني أن هذه الحياة ليست عبثاً، وهو ما يربط الإنسان بالحكمة التي خلق من أجلها، وهي عبادة الله بإقامة العمارة، وذلك بموجب الاستخلاف في الأرض.

ومن الممكن الاستدلال على هذا البعد التعميري لهذه الآيات، وتصنيف ما جاء

بها من خصائص بما يأتي:

1- الوحدة الموضوعية للسورة: المتدبر في هذه السورة يجد أن هناك روحاً سارية في موضوعاتها، تتمثل في أنها اهتمت بشكلٍ أو بآخر بموضوع العمارة والحضارة، وهذا من الممكن الاستدلال عليه من خلال:

أ- اسم السورة: اسم السورة يعبر عما جاء فيها، ويضم موضوعاتها تحت عنوان رئيس يجسد روحها السارية، والمتأمل في اسم السورة، يجد أنه اسم لقوم يميزون بأنهم أصحاب حضارة وعمارة سادت العالم، فصارت مضرب مثل، ومما يؤكد هذا الربط بين الاسم وما جسده من روح سارية ذكر العمارة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا

¹ - سورة الروم، الآيات 20 - 24.

عَمَّرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١﴾.

ب- أغراض السورة: إن المتأمل في أغراض سورة الروم يجد أن الروح السارية بين هذه الأغراض هي الأسس التي يقوم عليه نظام الكون ونظام حياة الإنسان، وأسباب انهيار هذه النظام⁽²⁾، كما أنها ترشد عموماً إلى أسس الحضارة والنصر والتمكين⁽³⁾.

2- الوحدة الموضوعية للآيات: إن هذه الآيات التي ذكرها الله - سبحانه وتعالى - دلائل على البعث والوحدانية تربطها وحدة موضوعية واحدة في كونها "آيات الله في تكوين نظام العالم ونظام حياة الإنسان"⁽⁴⁾، وهذا ما يبين لنا بعدها التعميري في كونها خصائص اختص الله بها الإنسان في عمارة الكون، يقول سيد قطب مبيناً ما بين الآيات من تناسب وترابط: "إنها جولة ضخمة هائلة، لطيفة عميقة، بعيدة الآماد والأغوار، جولة تطوّف بالقلب البشري في الأمسيات والأصباح، والسموات والأرض، والعشي والأطهار، وتفتح هذا القلب لتدبر الحياة والموت والعمليات الدائبة في النشوء والدثور، وترتد به إلى نشأة الإنسان الأولى، وإلى ما ركب في فطرته من ميول ونوازع، وقوى وطاقات، وما يقوم بين زوجه من علائق وروابط، وفق تلك الميول والنوازع وهذه القوى والطاقات، وتوجهه إلى آيات الله في خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان وفقاً لاختلاف البيئة والمكان، وإلى تدبّر ما يعترى الكائن البشري من نوم ويقظة وراحة وكد، وإلى ما يعترى الكون من ظواهر البرق والمطر، وما نثيره في نفوس البشر من خوف وطمع، وفي بنية الأرض من حياة وازدهار، وتمضي هذه الجولة العجيبة في النهاية بالقلب البشري إلى قيام السموات والأرض في هذا كله بأمر الله وإلى توجهه من في السموات والأرض كلهم لله، وتنتهي بالحقيقة

1 - سورة الروم، الآية 9.

2- يراجع: ابن عاشور، التحرير والتنوير: (21 / 41).

3- يراجع: سيد قطب، في ظلال القرآن: (5 / 2755).

4- ابن عاشور، التحرير والتنوير: (21 / 41).

التي تنجلي حينئذ واضحة هينة يسيرة إن الله هو يبدئ ويعيد، والإعادة أهون عليه، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم⁽¹⁾.

3- سياق الآيات وربطها بالعمارة: إنَّ السِّياق العام لهذه الآيات من الممكن إدراكه من خلال تتبع ما ذكر من نصوص سابقة تبين أغراض السورة، إلا أن هناك سياقاً آخر لهذه الآيات، وهو سياق خاص يربط بين ما جاء في هذه الآيات من آيات نفسية والعمارة، وهو ما يبين البعد التعميري لهذه الآيات في كونها خصائص للتعمير، وهذا ما يمكن بيانه مما يأتي:

- قرن الله - سبحانه- التفكير في الأنفس للدلالة على نفي العبثية، بالأمر في النظر بآثار الأمم السابقة التي حادت عن المنهج القويم للعمارة، في قوله - تعالى -: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِهِمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يُدْأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾⁽²⁾؛ ففي هذه الآيات أمر بالتفكير في آيات الله في الأنفس والآفاق؛ ليحصل للإنسان علم حقيقي يستطيع به عمارة الكون العمارة الكاملة، فيتم بذلك ما أراده الله من الحق.

- ومما يربط ما ورد في هذه الآيات بالعمارة، ما جاء في سياقها القريب، من ذكر ما يتضمن معنى العمارة، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾⁽³⁾.
الخاتمة:

في ختام هذا البحث يمكن بيان أهم نتائجه:

1- سيد قطب، في ظلال القرآن: (5/ 2763).

2- سورة الروم، الآيات 7-11.

3- سورة الروم، الآية 19.

- اختصَّ الله - سبحانه وتعالى - الإنسانَ عن غيره من المخلوقات بمجموعةٍ من المزايا جعلت منه أهلاً للتفرد بعمارة الكون، وإقامة الحضارة فيه، وهي خصائص من الممكن التّأصيل لها والاستدلال عليها من القرآن الكريم ومن السنّة النبوية المطهّرة.
- من أهمّ هذه الخصائص: خاصية الانتماء إلى الأرض، خاصية الاختلاف والتنوّع، خاصية النزعة الاجتماعية، خاصية التّعقل، خاصية حبّ الخلود، خاصية حبّ التّمكّ.
- معرفة هذه الخصائص والتّأصيل لها أمرٌ في منتهى الأهميّة لوضع الأصول التّربويّة التي يقوم عليه فقه العمران، وذلك لأنّ هذه الخصائص تعدّ أصولاً نفسيّة يقوم عليها هذا العلم.
- عمقُ بُعد النّظر عند ابن خلدون، وسعة فهمه لخصائص النّفس البشريّة. هذا والله أعلم، وهو ولي التوفيق.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- 1- ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1421 هـ، 2000 م.
 - 2- ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د، ط)، 1379 هـ.
 - 3- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان، 1984 م.
 - 4- ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1420 هـ، 2000 م.
 - 5- ابن عطية الأندلسي: أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1422 هـ، 2001 م.
 - 6- ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، (د، ط)، (د، ت).
 - 7- ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الأفرنجي المصري، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 3، 1419 هـ، 1999 م.
 - 8- الألوسي: أبو الفضل شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1426 هـ، 2005 م.
 - 9- البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، لبنان، ط 3، 1407 هـ، 1987 م.
 - 10- البقاعي: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1415 هـ، 1995 م.
 - 11- البوطي: محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، ط 3، 1998 م.

- 12- التفتازاني: أبو الوفا الغنيمي، الإنسان والكون في الإسلام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (د، ط)، (د، م)، 1995م.
- 13- الجليند: محمد السيد، خلل في مسيرة الأمة، دار قباء، القاهرة، مصر، (د، ط)، 2006م.
- 14- الرازي: نحر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1425هـ، 2004م.
- 15- الراغب الأصفهاني: أبو الحسين القاسم بن محمد بن المفضل: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق مصطفى بن العدوي، مكتبة فياض، المنصورة، مصر، ط 1، 1430هـ، 2009م.
- 16- الراغب الأصفهاني: أبو الحسين القاسم بن محمد بن المفضل، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، تقديم وتحقيق عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1408هـ، 1988م.
- 17- رضا: محمد رشيد بن علي، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
- 18- زرمان، محمد عبد الله، الفعل الحضاري في القرآن الكريم، دار الكتاب الثقافي، أربد، الأردن، (د، ط)، 1430هـ، 2009م.
- 19- الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (د، ط)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1407هـ.
- 20- السبباني: عبد الجبار حمد عبيد، الاستخلاف والتركيب الاجتماعي في الإسلام، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط 1، 1424هـ، 2003م.
- 21- السيوطي: أبو الفضل عبد الرحمن ابن أبي بكر، الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، عمادة شؤون المكتبات، (د، م)، (د، ط)، (د، ت).
- 22- الشوكاني: محمد بن علي بن محمد: فتح القدير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ، 1999م.

- 23- الشيباني: عمر التومي، خصائص الإنسان ورسالته في تعمير الكون في الفكر الإسلامي، مجلة الدعوة الإسلامية، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، العدد الخامس، 1988م.
- 24- الشيباني: عمر التومي، فلسفة التربية الإسلامية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ط5، 1985م.
- 25- الشيباني: عمر التومي، مفهوم الإنسان في الفكر الإسلامي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ليبيا، ط1، 1987م.
- 26- العقاد: عباس محمود، الإنسان في القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د، ط)، 2001م.
- 27- الكيلاني: ماجد عرسان، فلسفة التربية الإسلامية، دار القلم، دبي، الإمارات، (د، ط)، 1978م.
- 28- الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، النكت والعيون، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ، 1992م.
- 29- المحامي: محمد كامل حسن، الحياة الدنيا في القرآن الكريم، المكتب العلمي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د، ط)، 1989م.
- 30- مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د، ط)، (د، ت).
- 31- النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري، شرح النووي على صحيح مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1392هـ.
- 32- نوير: عبد الستار، رسالة الإنسان في الحياة ومقتضياتها، دار الثقافة، الدوحة، قطر، ط1، 1407هـ، 1987م.